ليلى بعلبكي

سفينة حنان الى القمر

وانا اغمض عينيّ استطيع ان ارى كل ما حولي ، المقعد الطويل الذي يملأ حائطاً شاسعاً في الغرفة من الزاوية الى الزاوية . والرفوف على الحيطان الباقية . والطاولة الصغيرة . والطراريح الملونة على السجادة . واللمبة البيضاء بشكل مصباح بترول كبيرالتي تتدلى من ثقب في الحائط وترتكز على البلاط . حتى الشبابيك تركناها بلا ستائر . وفي الغرفة الثانية صوفا عريضة . وطاولة عليها مرآة . وخزانة في الحائط . وكرسيان من قماش المخمل . لم نغير شيئاً في البيت الصغير منذ تزوجنا ، ورفضتُ ان انقل ايّ شيء فيه الى مكان آخر .

فتحت اجفاني قليلا حين سمعت زوجي يتمتم أن (الضوء قد طلع ، ووحدنا المستيقظان في المدينة) . رأيته يرتفع امام النافذة ونور الفجر الفضي ينهمر على وجهه وكل جسمه العاري . أحبّ جسده عارياً .

عدت واغمضت عينيّ ، فانا ايضاً استطيع ان ارى كل ذرة فيه وكل تفصيل دقيق يتخفّى : شعره الناعم وجبهته وانفه وشفتيه وذقنه وعروق رقبته وشعر صدره وبطنه وقدميه واظافره. وناديته ان يرجع ويتمدد قربي : عندي رغبة في ان اقبّله ؛ فلم يتحرك. عرفت انه يتهيأ لان يقول شيئاً هاما ، من انفصاله عني ووقوفه بعيداً . هكذا يصبح قاسياً عنيدا ينجح في اخذ القرارات وتنفيذها . وانا على عكسه تماماً : لاناقشه يجب ان

اتمسك بيده ، او المس ثيابه . لهذا فتحت عينيّ ، ورميت الطراحة التي كنت احتضنها ، وانتشلت قميصه ، وفرشته على صدري ، وعلقت نظري في السقف ، وسألتـــه ان كان يرى البحر ، فاجاب (ارى البحر) .سألته ما لونه ،قال(ازرق غامق من جهة ومن جهة ابيض رمادي).سألته هل اشجار السرو لا زالت هناك ، اجاب (لا زالت بين البيوت الملتصقة ببعضها ، وان على سطوح البنايات مياها راكدة). قلت انني احب شجرة البلح الوحيدة التي تبدو من عندنا كأنها مزروعة في البحر، وان اشجار السرو تصور لي المقابر البيضاء .

صمتَ طويلا وانا لا زلت احدق بالسقف ، ثم ردد (الديوك تصيـح) . اسرعتُ اخبره انني لا احب طيور الدجاج لانها تعجز عن التحليق ، وانني كنت وانا صغـيرة احملها الى سطح منزل وارميهـــا في الفضاء اجرب تعليمها كيف تطير ، وكانت الديوك وما والدجاجات تتكوم على الارض بلا حراك .

عاد وصمت قليلا ثم قال انه (يرى ضوءا اشتعل في نافذة بناية مقابلة) . قلت مـــع هذا لازلنا وحدنا المستيقظان في المدينة،المتعانقان الوحيدان طول الليل فيها . قال انـــه (شرب كثيراً الليلة) . عجلت اقاطعه انني اكره هذه العبارة ــ شربت كثيراً ــ شربت كثيراً ــ كأنه يندم على الجنون الذي احبّني بـــه واللهفة.شعر انني بدأت انرفز. بدّل الحديث ، قال (تبدو المدينة ككومة من الاحجار الثمينة البراقـة بكل الالوان والاحجام) . اجبته انني اتخيل المدينة الآن علبا من الكرتون الملون اذا نفخت فيهـــا تهبط . وبيتنا وحده بغرفتيه يتعلق على غيمة ، يسير في الفضاء . قال ان (الجفاف في فمه ويريد برتقالة) . اكملت ومع انني لم اسكن مدينة غير هذه المدينة كنت اكرهها ، ولو لم احلم بانني يوما ما التقي برجل يأخذني بعيداً عنها بعيداً لمتُّ كمداً من زمان زمـــان . تظاهر بانه لم يسمع عبارتي الاخيرة . ردد (اريد برتقالة ، نشف حلقي) . اهملت طلبه، واملت انني معه لا اكترث للمكان ، تختفي اليابسة باشجارها وجبالها وانهرها وحيواناتها وبشرها . لم يعد قادراً على الانتظار . انفجر يسألني (لماذا ترفضين انجاب الطفل ؟) حزنت وانعصر قلبي وصعدت الدموع الى اذنيّ فلم افتـــح فمي . سألني (منذ متى تزوجنا ؟) لم انطق بحرف وانا اتتبع دورانه . جمد وتابع (منذ سنة وعدة شهور تزوجنا وانت ترفضين ترفضين ، مع انك كنت مهووسة بالاطفال قبل ان نتزوج ، كنت مريضة

بهم) . وزاغ يضرب المقعد بيديه ويردد (اتذكر ايها المقعد توسلاتها ؟ وانت ايتها اللعبة هل سمعت صوت نحيبها ؟ وانت ايتها المخدات كم جعلت منك اجساداً صغيرة تحتضنها وتغفو قربها ؟انطقي ايتها الجمادات . انطقي. اعيدي لها صوتها الغائر فيك). بهدوء قلت ان الجمادات لا تحسّ ولا تتكلم ولا تتحرك . غضب وشرح أن (من اين لك ان تعلمي انهـا ميتـة ؟) ، اجبت ان الاشياء ليست ميتـة ، انهـا فقط تستمد نبضهـا من الاشخاص . فقاطعني انه (لن يجادل الآن في الاشياء ولن يتركني اتهرب من حل هذا الموضوع ككل مرة) . شرحت له ساهية ان الاشياء حولي ، هذه الاشياء بالذات : هذا المقعد ، هذه السجادة ، هذه الجدر ، هذه اللعبة ، هذه المزهرية والرفوف والسقف ، انها مرآة هائلة تعكس لي العالم الخارجي : البيوت ، والبحر ، والاشجار ، والسماء ، والشمس ، والنجوم ، والسحب . والمح فيها ماضيّ معـه ، ساعات التعاسة والكمد ولحظات اللقاء والحنين واللذة والهناء ، ومنها الان استمد صور الايام الاتية . وانني لن اتخلى عنها . غضب وصرخ (عدنا الى الاشياء . اريد ان افهم الآن والآن لماذا ترفضين الطفل) . لم اعد احتمل.صرخت انـه هو ايضا كان يرفضه في وقت من الاوقات.صمت برهة ثم قال انه (رفضه قبل ان نتزوج وكانت حماقة ان نأتي بـه) . بسخرية قلت انه كان يخافهم ، هؤلاء الآخرين المهرجـين ، في المدينة . كان يستجدي رضاهم وبركتهم وموافقتهم ليراني واراه ويضمني واضمه ويغرقني بالحب واغرق فيه . كانوا يحددون لنا امكنة لقائنا،وعدد خطواتنا اليها ،والزمن ،ومرتبة ارتفاع صوتنا،وعدد انفاسنا . وكنت اراقبهم انا ، كانوا يسخرون منا في سرهم ، كانوا ينامون بوقاحة مع الاجساد التي يحبونها ، ويأكلون ثلاث وجبات طعام في النهار ، ويدخنون سجايرهم مع فناجين القهوة وبطحات العرق ، ويقهقهون ، يعلكون في ابتذالهم حكاياتنا ، ويخترعون قواعد لنا للغد ننفذها لهم . اتاني صوته مختنقا وهو يغمغم (لم اكن اكترث للآخرين . كنت مرتبطا بامرأة اخرى) . آه كيف يمكنني ان اتحمل كل هذا العذاب ، كل هـذا التمزق ، كل هذا العشق له ؟ تمتمت انه كان جبانا،كان يعجز عن الاعتراف لها بالحقيقة بانه لم يحبها ولا يحبها ولن يحبها). قال باختناق انه (لم يكن هينا ، كان قاسيا عليه ان يحدق بوجه انسان ويقول له ، بعد تسع سنوات كان ينهض فيها كل يوم، كل يوم ،

فيجده امامه ، يقول له : الآن انتهى المشهد . ويدير له ظهره ويبتعد) . امرته ان ينظر الى يده اليمنى ، وسألته ان كان دمي لا زال هناك يقطر منهـا ساخنـا على الارض . غمغم (كنت مجنونة . مجنونة حين نفذت الفكرة. فتحتُ هذا الباب . دخلتُ هـذه الغرفة . رأيتُك انت ممددة على هذا المقعد . شرايين يدك مذبوحة . تسبح اصابعك في بحيرتي دماء . كنت مجنونة . كان يمكن ان افقدك). تبسمتُ بحزن ، وانا اشـد قميصه الى صدري ،الى وجهي ،اشمشمه . وقلت ان دوري في المسرحية كان يقتضي الانسحاب في النهاية ، وكان الغياب الممكن عندي الذي اتقبله واستطيع احتماله هو الموت السريع، بدل الزحف البطيء القاسي . كضفدعة الماء التي ضلت طريقها في الرمال ، في عين الشمس، في تفتيشها عن ضفة النهر ، في فيلم « حياة كلاب » . ردد حزينا انه (لم يكن يعلم انني جادة في تعلقي به) . سألته ساخرة وهل كان ينتظر ان اقتـل نفسي ليتأكـد من صدقي ؟ واخبرته انني كنت ضائعة فيه ، كنت عاصفة حب زائغة اتسلل بين اصابع الناس ، والفـح وجوههم ، واخترق الشوارع غير منظورة . كنت احسّ فقط ثقل الاجسام وارتفـاع البنايات ويديه ، وطلبت منه ان يقترب ويعطيني يديه لانني اشتقت لهـما . فظل بعيدا جامداً ، واسرع يتهمني (بعد كل هذا الشقاء والانتصار ارفض ان احبل منه . وارفض. ارفض . ارفض). ويفهم من رفضي انني لم اعد احبه . ماذا ؟ صرخت ان لا يمكنه ان يتهمني بذلك ابدا . البارحة فقط كنتُ ممددة قربه ، كان يستسلم لنوم عميق وانا مفتحة الاجفان ، احفحف وجنتيّ بذقنه ، واقبّل صدره ،واندسّ تحت ذراعه ، ابحث عبثاً عن النعاس . هنا صارحته أن يزعجني فيه سرعة الذهاب في النوم وتركي وحيدة صاحيـة بجانبه. اسرع مستنكرا يقول انه (لم ينتبه يوما بانني اظل ساهرة . كان يعتقد انني اغفو لحظة يغفو هو) . ابديت بخبث انها ليست المرة الاولى التي يتركني فيهـا وحدي . ثم اكملت سرد حادثة البارحة ، انه كان نائما يتنفس بهدوء ، وانا مستلقية على جنبي التصق به ، ادخن سيجارة ، وفجأة رأيت في فضاء الغرفة بين الدخان قدما هاربـة من تحت الشراشف .حركتها فلم تتحرك،وسرت برودة في جسدي كله. حركتُها فلم تتحرك. فخطر لي ان اصرخ . حركتُها فلم تتحرك . فاسرعت اخبيء وجهي في شعره ، خفت . خفت . فتحرك هو ، وتحركت القدم . وبكيت بصمت . كنت احسب ، كنت اشعر ، كنت لا

استطيع التفريق بين قدمه وقدمي . ردد بصوت خافت (في هذا العصر لا يموت الناس من الحب) . اسرعت اغتنم الفرصة ، فقلت وفي هذا العصر لا ينجب الناس اطفالا : كانوا في القديم يعرفون اين يسقط رأس الطفل ، ومن يمكن ان يشبه ، وذكر هو ام انثى ، كانوا يغزلون له قمصانا من الصوف وجوارب ، وكانوا يطرزون له ذيول الفساتين والجيوب والقبات بعصافير ملونة وازهار . وكانوا يجمعون له الهدايا صلباناً من الذهب وما شاءالله وكفوفا مرصعة بحجارة زرقاء وسلاسل حفرعليها اسمه . كانوا يحجزون له الداية ويحددون لها يوم الولادة . وكان يهجم الطفل من الظلام ويرتمي في النور في توقيته الدقيق المنتظم . وكانوا يسجلون باسم الطفل قطعة ارض . وكانوا يستأجرون لهبيتاً ،ويختارونله الرفاق ، ويعرفون الى اي مدرسة يرسلونه ، والمهنة التي يتعلمها ، والشخص الذي يمكن ان يحبه ويربط مصيره بمصيره . كان هذا من زمان بعيد بعيد، في عهد والدك ووالدي .استفهمني (هل تعتقدين العشرين سنة الماضية دهراً ؟ ماذا تغير الآن ؟ ماذا تغير ؟ الا يمكنني ويمكنك اعداد كل ما يعد للطفل ؟) لاخفف عنـــه شرحت انني قبل ان اتزوج كنت انا كطفل يستلقي على ظهره امام نافذة ، يراقب النجوم ، يمدّ ذراعه الصغيرة يودّ قطفها . كنت اتسلى بهذا الحلم ، بهـذا المستحيل ، اتعلق به واتمناه . سألني (اذاً كنت تخدعينني) . ماذا ؟ اكتشفت انه حوّر الحديث الى هجوم عليّ لكسب المعركة . فاسرعت اصارحه ان المرأة المحرومة مع رجلها هي وحدها التي تلحّ في طلب الطفل لتغيب ، وتتلذذ في اللقاء به ، وتتحرر . اسرع يقاطعني (وهل كنتِ غير مكتفية ؟) اجبته أن كنا نخـــاف ، كنا لا نسافر الى آخر المجاهل الحلوة ، كنا نرتعد ، كنا نصطدم دوما بوجوه الآخرين ونسمع اصواتهم . ومن اجله هو ومن اجلي انا استقتلت لاحيا . وانه يخطىء ، يخطىء في شكه بجنوني به . تمتم (ضعتُ . لا افهمكِ) . هاجمته أن اجل اجل لن يفهمني ايضاً اذا اخبرته انني لا اجرؤ ان احبل . انني لن اقترف هذا الخطأ . زعق : (خطأ ؟ خطأ ؟) تشبثتُ بقميصه اكثر ، استمد قوة . وعلى مهل ، وبصوت خـــافت ، حكيت له كيف يرعبني مصير طفل نرميه في هذا العالم . كيف اتخيل طفلي انا ، هذا الكائن الذي اطعمهمن دمي واضمه في احشائي واقاسمه تنفسي ونبضات قلبي وطعامي اليومي واعطيـــه ملامحي والارض ، كيف يحتمل في المستقبل ان يتخلى عني ويذهب في صاروخ الى القمريستوطن

هناك . وهناك من يدري ان كان يسعد او يشقى . اتخيل طفلي باربطتـــه البيضاء ، يطفر الدم من وجهه الطري ، مشدودا الى كرسي داخل كرة زجاجية مثبتـــة على رأس قضيب طويل من المعدن الكاكي ينتهي بطيات تشبـــه تنورة فستاني « الشارلستون » . ويضغط على زرّ ، وتهب عاصفة غبار ، وينطلق سهم في الفضاء . لا يمكنني . لا يمكنني .

صمتَ طويلا طويلا ، ونور الفجر يتسلل الى زوايا الغرفة من وجهه ، ووجهه ساهٍ يفتش في السماء عن سهم ووجه طفل . كان الشرش بين حاجبيه معقودا . كان الاستغراب والتوتر على فمه . فصمتّ انا ايضا ، واغمضت عينيّ .

وعندما اصبح قربي ، واقفا كبرج هائل في محطة اطلاق صواريـــخ ، خفق قلبي وتمتمت له انني اعشق جسده عاريا . عندما يرتدي ثيابه ، خصوصا عندما يعقد ربطة عنقه ، احسّه شخصا غريبا جاء الى البيت في زيارة لسيّد البيت . فتح ذراعيه ، وانحنى . فهجمت الىحضنه اهذي:احبك . احبك . احبك . احبك . احبك . احبك . وهـــو يهمس في شعري (انت لؤلؤتي). ثم نشر راحة يده على شفتيّ ، وشدني اليـــه بيده الاخرى ، وامرني (هيا لنصعد انا وانت الى القمر) .